

تعظيم أبي العلاء لأبيه في رثائه له

(أدب عربي)

د/ عبد الله رمضان
قسم الأدب والنقد
كلية اللغات - جامعة المدينة العالمية
شاه علم - ماليزيا
arharidy@gmail.com

فينصب الابن ويتعب وهو أمر بدهي مسلم به مثلما أوجب النحاة النصب على حرف "إن" وتتضح في هذا البيت ثقافة أبي العلاء اللغوية وأثرها في شعره:

كأنّ ذُعاء الموتِ باسمِكَ نُكْرَةً فَرثَ جَسَدِي والسَّمُّ يَنْفُثُ في أذني
تَنَنٌ ونَصْبِي في أنيكَ واجبٌ كما وَجِبَ النَّصْبُ اعترافاً على "إن"

ويصور أبو العلاء موت والده شينا فشيناً تصويراً جميلاً، ونفهم منه كذلك أنه مات ليلاً، فوالد الشاعر ضعف عن إدراك الصباح مثلما يفنى المصباح في آخر الليل عندما يقترب من الانطفاء، أو عندما يغطي نور الصباح على نوره فيفنى نوره في نور الصباح، وإذا اعتمدنا تفسير فناء المصباح على أنه ذوبان ذات المصباح/نوره في ذات الصباح/نوره - وهو الأشد - فإن فناء والد الشاعر أو ضعفه عن إدراك الصباح ما هو إلا ضعف الجسد عن هذا الإدراك مع ذوبان الروح في الإصباح/الموت/البعث:

ويخاطب أبو العلاء والده - إن كان يسمعه - ناعياً نفسه بالمفجوع وبالقن له، ويقول إنه سيبكي إذا غنى ابن ورقاء مبتهجا، وتنعكس حال الحزن الشديد عليه، فلا يرى الحسن حسناً، بل يستحيل كل جميل حواليه دميماً لأن موت والده قلب موازينه، ومن ثم موازين الحياة من حوله، فكل قبينة تغرد باللحن الجميل ستكون نادبة في سماعه:

فهل أنت إن ناديتَ زَمَسِكَ سامِعٌ نداء ابنك المفجوع بل عبدك القن
سأبكي إذا غنى ابن ورقاء بهجة وإن كان الذي يغنيه ضد الذي أعني
ونادبة في سمعي كل قبينة تغرد باللحن البري عن اللحن

ولم يجد الشاعر مفراً من الحزن، فألزم نفسه به طالما كان على قيد الحياة، أما حين تنتهي فلن يكون هناك مجال للحزن لأنه سيلاقى عندها أباه:

وأحمل فيك الحزن حياً فإن أمتُ وألقت لم أسنك طريقاً إلى الحزن
ويختم رثاءه لأبيه بقوله:

ويعدك لا يهوى الفؤاد مسرّة وإن خان في وصل السرور فلا يهني

وفي كل ذلك تتضح جليلة المكانة الخاصة جدا التي كانت لوالده في نفسه، تلك المكانة التي ربما كان مردها عدة أشياء:

أولها: أنه أبوه ولا يتنكر لتلك العاطفة إلا من طمس الله قلبه، ولم يكن أبو العلاء كذلك، ثانيها: أنه كان أستاذاً له ومعلماً، وثالثها: ظروف أبي العلاء الخاصة حيث كان فاقداً لبصره، فلا شك أن والده كان عوناً له في حياته بالإضافة إلى أمه، ورابعها: ربما كانت مكانة أبيه في قومه وبلدته معرفة النعمان لها دور أيضاً؛ لأن الشاعر ربما يبدي

خلاصة— هذا الموضوع يتناول تعظيم أبي العلاء المعري لوالده في رثائه له، جاعلاً إياه في مكانة تقترب من مكانة المقدسات.

الكلمات المفتاحية: أبو العلاء المعري، الشام، الرثاء، الأبياء، الموت، الفناء، المعرفة.

I. المقدمة

وفاة والد أبي العلاء جرحت قلبه جرحاً غائراً، وأصابته بالحيرة والاضطراب، فهو يسعى بلا هدف واضح، لا يعرف إلى أين يذهب ولا لماذا يقيم؛ أضحت حياته لا معنى لها بغير ذلك الإنسان العزيز.

II. موضوع المقالة

ينتقل أبو العلاء في رثائه لأبيه من دار الموت إلى دار الحياة، من الدار الجديدة التي أوى إليها أبوه إلى الدار التي فارقها والمغاني التي عاش فيها فلا يستطيع إلا أن يجلبها إجلال المقدسات (الحجر والركن)، وتنبئ هذه الطريقة في الإجلال عن عظمة الوالد في نفس الابن، فإذا كان هذا إجلاله لمكان أبيه بعد وفاته فكيف كان إجلاله لأبيه في حياته؟

أمرٌ برزحٍ كُنْتُ فيه كأنما أمرٌ من الإكرام بالحجر والركن
وإجلال مغناك اجتهداً مقصراً إذا السيف أودى فالغفاء على الجفن

ولما كان لوالد الشاعر هذه المكانة العظيمة المقدسة في نفسه، فإن وفاته كانت فاجعة لا تحتمل حيث مسخت قلبه طائراً لا يستقر على وكن، وجناحه لا يكف عن الحركة، فما إن يحط في مكان حتى يظعن بعيداً عنه. وفاة والده إذن جرحت قلبه جرحاً غائراً، وأصابته بالحيرة والاضطراب، فهو يسعى بلا هدف واضح، لا يعرف إلى أين يذهب ولا لماذا يقيم؛ أضحت حياته لا معنى لها بغير ذلك الإنسان العزيز، وفي تعبير أبي العلاء: "يقضني بقايا عيشه" ما يدل على نفسه المجروحة التي تنظر إلى ما بقي من الحياة على أنه أيام ستمر وتنتهي، وكأنه ينتظر انقضاءها حتى يصل إلى هدفه المنشود، وهو معاينة الحقيقة ولقاء أحبابه:

لقد مسخت قلبي وفاتك طائراً فأقسّم ألا يستقر على وكن
يقضني بقايا عيشه وجناحه خثيث الدواعي في الإقامة والظعن

وعندما دعا الموت أباه كان هذا الدعاء كاللدغة التي فرت جسده والسم الذي ينفث في أذنه، ولا ينفصل شعور الأب عن شعور الابن في تلك اللحظة الحرجة، بين الأب

اهتماما بوجيه غريب عنه فيمدحه أو يرثيه، فمن باب أولى أن يكون اهتمامه بالوجيه القريب، ولا سيما إذا كان أبا حيث يمس ذاته مسًا مباشرًا.
وأعتقد أن موت والد أبي العلاء كان من المقدمات القوية التي دفعته فيما بعد أن يصبح رهين محبسه - سنة أربعمانه بعد وفاة والدته - خصوصا أنه يؤكد كثيرًا في هذه القصيدة على التزامه الحزن وعدم التمتع بالحياة بعد فقده له.